أين يتجه الأدب في المغرب الأقصى ؟

محمد زنيبر

يجتاز الادب المغربي في الظرف الراهن فترة ازمة مخصبة ومفيدة نظرا لكونها تقيم مواجهة حية بين افكار مختلفة ومتناقضة . وقد نشات هذه الازمة منذ اليوم الذي وعى فيه تطور العالم وتخلفه عن الثقافات الاخرى ، ففقد ثقته في مزاياه التقليدية وقرر ان يتغير على غرار العالم المعاصر آخذا بالاعتبار التحولات السريعة التي دخلت على هياكلنا الاقتصادية والاجتماعية غداة تسرب الاستعمار الى بلادنا .

وتلك ظاهرة لا تخص المغرب وحده ، بل ان الاقطار العربية عرفت هي ، ايضا، على درجات متفاوتة ، الوضع نفسه واصطدمت بالمشاكل ذاتها . فان حركة الانبعاث العربي ، وهي تنطلق من مصر اثناء القرن الماضي اخذت تصل شيئا فشيئا الى المغرب وتثير النقاش حول القيم التقليدية ، ونزوع العادات المتاصلة في العقول منذ قرون ، وتخلق تيارا قويا يهدف الى التجديد .

وبما ان كل بلد عربي له ميزته وخصوصيته ،فمن المفيد ان نرى كيف كانت تجربة المغرب في ميدان التجديد الثقافي والمشاكل الناشئة عن ذلك والتي ما زال يصطدم بها جيلنا الحالي .

السمات الجوهرية لثقافتنا التقليدية :

ليس في مستطاعنا ان نفهم الحاضر دون ان نتعرف على الماضي الذي ما زال ينزل بكل ثقله في حياتنا الفكرية . وسيطول بنا الامر لو اردنا ان نقدم ملخصا عن تاريخ الادب المغربي . ويكفي ان نحدد بعض سماته الجوهرية لنتمكن من فهم مشاكلنا الحالية :

١ ـ الصبغة الدينية :

لم ينشا الادب المغربي عن تطور عادي وداخلي حسب النموذج الذي اعتاد علم الاجتماع ان يسجله بالنسبة لعدد من الاقطار الاخرى . بل انه ادب جاء ناضجا ومكتملا من الخارج ، واستقر شيئا فشيئا بالمغرب مع دخول دين جديد هو الاسلام ، ولغة جديدة هي العربية . وهذا ما يخوله ، منذ البداية ، وضعا خاصا في حياة البلاد ، يجعله منطبعا ، من الاساس ، بطابع الدين وحاملا لسمات القداسة ومع استقرار دولة الاسلام بالمغرب ، سيزداد اشعاعا ويعظم حرمة بين جماهير المغاربة ، وان اعتبرنا انه كان منغلقا على فهم الاكثرية من بينهم وان الذين يتدارسونه على حقيقته ويفهمونه ينحصرون في دوائر خاصة ممن كان لهم حظ في نيل قسط من العلم .

واقدم النماذج التي بقيت لنا من هذا الادب الناشيء هي عبارة عن خطب منسوبة لبعض الائمة والامراء والرؤساء العسكريين الذين كانوا يرفعون من معنوية جنودهم عند الاقدام على معارك الفتوح والجهاد . ومن هذا القبيل اشعار ومراسلات كلها تنحو الى نفس الهدف .

حقا ، انه وجد من بعد شعراء وكتاب عالجوا موضوعات اخرى لا علاقة لها بالدين . بل ان فيهم من سلك سبل الاحماض والمجون ، ولكن هذا لم يكن يعني اي انحراف فعلي ، وانما هي نزوات عابرة تدخل في باب التسلية والفكاهة . وكل هذا لم يكن يرى فيه رجال الدين انفسهم اي بأس . بما ان هؤلاء المؤلفين كانوا يكتبون لجمهور من المؤمنين المتحدين في عقيدتهم ، فقد كانوا يشعرون في النهاية ، شعورا قويا انهم في خدمة الدين وفي خدمة الدولة التي تمثله . ويكفي ان نورد هنا مثال القاضي عياض الذي يقدم لنا بآثاره وشخصيته ارفع صورة عن الاديب المغربي في العصر الانتقالي بين دولتي المرابطين والموحدين .

وكلامنا هنا يعني الادب المغربي في عمومه . فاذا ركزنا نظرنا في الادب الديني والصوفي الذي كان له شان كبير في المغرب ، بلاد الزوايا ورباطات الجهاد ، فان تلك الصبغة الدينية ستظهر بصورة انصع واجلى .

٢ ـ الظاهرة الارستوقراطية :

ثم انه ادب بلاط ونخبة ، فلا ننسى ان الكتاب لم يكن آنذاك وراءهم جمهور حقيقي يساندهم ويشجعهم، ولذلك كانوا يتجهون بانتاجهم الى الملوك والامراء والكبراء الذين كانوا يغدقون عليهم العطايا والهبات ، ويقدمون لهم الرعاية المعنوية . وكان الكثير من الملوك يحرصون ، بدافع من التقاليد المرعية ، وفي بعض الاحيان ، بدافع من ذوقهم الخاص ، على ان يكونوا حماة للعلم والادب والثقافة، شاعرين ان ذلك خير باب يلجون منه الى المجد سواء في اعين معاصريهم او في اعين الاجيال التالية . ويكفي ان اذكر هنا ، على سبيل المثال، اسماء علي بن يوسف اللمتوني ، وعبد المومن الموحدي ، ويعقوب المنصور الموحدي ،وابي الحسن المريني والمنصور السعدي ، ومحمدبن عبدالله العلوي ، والمولى سليمان العلوي .

ومن ثم تبرز لنا السمات الارستوقراطية الواضحة لهذا الادب . وهذا يعني انه ادب ظل يرفض اي اتصال مباشر مع حياة الشعب وانه لا يجد نفسه الحيزى الا في اروقة القصور وصالونات الامراء واعيان الدولة واندية الادباء والعلماء الخاصة . والاتصال الوحيد الذي كان يجري بين بعض العلماء والجمهور كان يأتي عن طريق الدروس التي تلقى بالمساجد والزوايا . ولكنها دروس كانت خالية من روح الحوار وتغلب عليها النوجماتية . فهي تنحصر في صورة تقليدية قلما يدخل عليها التغيير ، وان دخل عليها ، فانه لا يتناول الا الشكل . اما المضمون ، فيبقى جامدا ، بحيث ان هذا

الانصال بدل ان يكون عامل بعث للافكار ودافعا الى البحث والاستكشاف ومثيرا للمناقشات الحية والخصبة ، كان يؤدي ، بالعكس ، الى التجميد الفكري وتغليب روح الانقياد والخضوع على روح التفكير والنقد .

وواجب الانصاف يقضي علينا ان نعترف بان هذا الوضع لم يكن خاصا بالمغرب ، بل كان معمما في العالم الاسلامي ، وبالاخص في عهود الانحطاط .

يبقى بعد كل هذا سؤال مهم يطرح علينا نفسه طرحا ، ألم يكن لشعبنا ادب ؟

كل من انكب على هذا الموضوع ، وابن خلدون على رأس الجميع ، خرج بهذا الاستنتاج المهم : وهو ان شعب المغرب الاقصى اكثر شعوب المغرب الكبير تفتحا على ميدان التعبير الشعري ، والواقع ان تراث الملحون الذي بقيت لنا منه بقايا لا بأس بها ، يدل على وجود هذا الادب وعلى طرافته وتنوعه . وهذا باب مهم من تاريخ الثقافة المغربية بدأت الانظار تتجه اليه واخذ بعض الباحثين يخصونه بالدراسة .

وكل ما ينقصنا ، الان ، هو احصاء التراث الموجود بصورة مضبوطة وتصنيفه ووضعه في اطاره التاريخي ، على وجه التحقيق حتى نستطيع ان نكون فكرة عن تطوره عن المؤثرات التاريخية التي خضع لها . وليس يكفينا في هذا المضمار ان نعرف ان هنالك آلاف القصائد وان هنالك مدحا وغزلا ورثاء وفخرا ونقائض الخ ...

وقد كان لابن خلدون الفضل في اشعارنا باهمية الملحون منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، اذ يحدثنا عن أزجال ترجع الى عهد القرن الثاني عشر . لكن معظم التراث الذي بين ايدينا ، اليوم ، يرجع الى القرنين الاخيرين ، حيث تتكاثر أسماء الشعراء وتتعدد القصائد . ومع ذلك ، فان هذا الادب الشعبي الذي وصل الينا يقتضي منا ان نبدي في شأنه ملاحظتين اساسيتين :

١ ـ ليس كل ادب كتب بالعامية يعتبر بالضرورة ادبا شعبيا ، لسبب بسيط وهو ان العامية هي في نفس الوقت لغة عامة الناس ولغة الارستوقراطية كذلك . ولذلك فاننا نجد من بين شعراء الملحون من كانوا هم ، ايضا ، يمثلون النزعة الارستوقراطية في انتاجهم ، سيما اذا علمنا ان البعض منهم كانوا من رجال البلاط وحاشية الملوك .

حقا ، اننا امام رباعيات المجذوب او قصائد الجيلالي المنير او توسلات العلمي ، نستعر بروح شعبية اصيلة ، ولكن بالنسبة لشعراء آخرين ، نجد المسحة الارستوقراطية تتجلى في اغراضهم الشعرية وفي اسلوبهم الذي لا يخلو من محسنات وتكلف . ومهما يكن ، ففي شعر الملحون انتاج شعبي ، بكل معنى الكلمة ، يمثل في الوجدان الشعري وفي التجارب مع العاطفة الجماعية . وهذا الانتاج هو الذي ما زال في حاجة الى دراسة وتحليل .

ب ـ يجب ان نضع في حسابنا ان هذا التراث الشعبي ضاع منه الكثير ، بسبب الاهمال والتفريط ، فرجال الادب الفصيح والمؤرخون والمؤلفون ، على اختلاف فنونهم ، كانوا ينظرون اليه كادب وضيع وسوقي . ولذلك قل منهم من تحدث عنه ولو ، بالاشارة . وكان من عواقب هذا الاهمال عدم الاهتمام بالمحافظة عليه وتدوينه والاعتماد في نقله على الرواية الشفوية كما لو كنا نعيش في عصور الجاهلية . ومع ذلك ، فالقصائد التي بقيت لنا منه ، وان كانت قليلا من كثير ، كفيلة باعطائنا صورة متكاملة تظهر لنا فيها اصوله واساليبه وقوانينه الجمالية .

بيد ان هنالك حقيقة اساسية يجب ان لا تغيب عنا وهي ان هذا الادب الشعبي برمته ، مهما كانت النتائج التي نتوصل اليها من خلال استكشافه ودراسته ، لا يمثل الا جانبا خاصا من حياتنا الثقافية . وهذا الجانب يمكنه ان يحمل سمات التوسع والتنوع والشمولية التي هي من المفروض ان تكون موجودة في ادب اللغة الفصحى ، المشتمل على كل العلوم والوان الثقافة .

فنستنتج ، في خاتمة المطاف ، ان مساهمتنا في انماء الثقافة العربية تكمن ، اساسا ، في ذلك الادب المغربي الكلاسيكي ذي الطابع الارستوقراطي . وهذا لا يمنع من ان نجد من بين رجاله من شارفوا النبوغ . والمغرب ، في هذه الظاهرة الارستوقراطية ، ليس استثناء ولا حالة خاصة ، سواء بالقياس الى غيره من الاقطار العربية او حتى الاقطار الاوروبية التي لم تتحرر من سيطرة الاقطاع والارستوقراطية التقليدية الا في عهد قريب .

لذلك ، فلو اقترح علينا ان نضع انطولوجية مغربية ، فسنجد لها من الاعلام اللامعة والمشرقة ما يملأ صفحاتها مثل القاضي عياض ، وأبي جعفر عطية وعبد الواحد المراكشي ومالك بن المرحل وأبي العباس الجراوي وعبدالعزيز الفشتالي وابن حبوس وأبي علي اليوسي ومحمد ابن الطيب وابن زاكور وابن ادريس الخ ..

٣ ـ العاطفة الوطنية :

واخيرا ـ ولعلنا نصل هنا الى الصفة التي نهمنا اكثر من غيرها ـ انه ادب ، بعد انطلاقة لامعة ، آل به الامر في عصور الانحطاط الى الانطواء على نفسه والانغلاق . فاحاط نفسه بسياج سميك من الترفع والعجب وهو لا يتقوت الا من ذاته ولا يبحث عن غذاء سوى ذلك . وهكذا رفض عمدا ان يعي العالم الخارجي ، فحكم على نفسه ، بالتالي ، ان يسير نحو القفر المتصاعد ، والجمود ، وفرض على العقول قوالب دوجماتية لا سبيل للخروج منها .

وسيطول بنا الامر لو اردنا تحليل اسباب هذا العناء وهذا الانعزال . واعتقد اننا سنجد تفسيرا لذلك في الدور الحاسم الذي قام به المغرب الاقصى في تاريخ المغرب الكبير والاندلس على السواء .

فقد دفع الطموح ببلادنا الى ان تلعب دورة الوحدة المغربية والدفاع عن الاسلام في اسبانيا بكل صدق واخلاص ، فوجدت نفسها معرضة ، من جراء ذلك ، لعداوة دائمة وشديدة من لدن العالم المسيحي والالوان من الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك ضدها في الاقطار المغربية الاخرى . فالمغرب الاقصى اخذ على نفسه ، منذ عهد المرابطين ، اي منذ القرن الحادي عشر الميلادي ، ان يدافع عن حوزة الوطن الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية فيرد عنها عدوان امارتي قشتالة واراغون . وكان هذا الصراع يجري في الاطار المتحمس للحروب الصليبية التي زعزعت عالمي المسيحية والاسلام . وظلت الجيوش المغربية مجندة باستمرار طيلة قرنين من الزمان لتوقف الزحف المسيحي داخل الاراضي الاسلامية .

ثم كان سقوط غرناطة في اخر القرن الخامس عشر ونهاية الوجود العربي باسبانيا . ولكن ذلك لم يكن نذيرا بنهاية الحملة الصليبية ، اذ استمر الاسبان والبرتغاليون في مهاجمة الشواطىء المتوسطية والاطلسية للمغرب وتمكنوا ، احيانا ، من احتلال بعض المراكز . وهكذا . فالحرب تستمر ، ولكن في هذه المرة ، لا لانقاذ اقاليم خارجية او مساعدة قطر شقيق معرض للخطر ، ولكن للدفاع عن استقلال البلاد نفسها وسلامة وحدتها الترابية وصد الحملات الاولى للامبريالية الاوروبية .

وفي نفس الوقت ، دخلت الوحدة المغربية في طور التمزق . فالاتراك في حملتهم التوسعية تجاه الغرب يفرضون سيطرتهم على ليبيا وتونس والجزائر . اما المغرب ، فقد واجه الحدث متشبثا بتقاليد الاستقلال التي عرف بها منذ عهد العباسيين . ولم يتخاذل ولم ينخدع لعظمة الدولة العثمانية وهي في اوج المجد والانتصار .

ولكي يقف في وجه النسرب التركي من حدوده الشرقية ، اضطر طورا الى استعمال السلاح وطورا الى الاخذ بالاساليب الدبلوماسيه .

فهذه الوضعية ، وضعية الحرب الدائمه في واجهات متعدده ومع اقطار مختلفة كل الاختلاف ، هي التي دفعت بالمغرب الى موقف التخوف والانطواء . التسيء الذي كان له ، بالطبع ، انعكاسه في المستوى الاخلاقي والفكري ، متجسما في العداء لكل ما ياتي من الخارج، وفي الوفاء للقيم التقليدية والتشبث بعادات الاجداد والتصلب في امور الدين . فهذا هو الوقت الذي عرفت فيه الصوفية طفرة جديده بالمغرب . وتعددت الزوايا والرباطات ، مثيرة الحماس الوطني وروح الجهاد في نفوس الناس ، ومجندة طوائف من المؤمنين في حملاتها الحربية على المراكز التي يحتلها العدو .

فنجم عن ذلك انعزال شامل وجمود تام في الميدان الثقافي حيث حوربت كل فكرة جديدة على اساس انها بدعة خطيرة ، وبرغم ان ابن خلدون ظهر في ذلك العصور ، المفروقة بعصور الانحطاط ، فان تفكيره المتحرك ، الدينامي ـ ولست اخشى ان اقول الثوري ـ لم يحرك ساكنا ولم يدفع الى المزيد من التبصر واليقظة وظل ، على العموم، غير مفهوم .

وانحدر فن الكتابة الى مستوى صناعة تقليدية تهتم نماذجها وتقاليدها الثابتة التي لا يمكن ان تدخل عليها يد التغيير . فهي اسجاع محفوظة وصور بيانية تنقل من هنا الى هنا فتهول ما لا يستحق التهويل وتبالغ مبالغة في التخيل وتثير زوابع في الاكواب وتطنب في المدح وتسهب في الذم وتترك القارىء حيران يبحث عن الحقيقة ، عن شيء صحيح ملموس يمسكه بيده من وراء ركام الكلمات ورنين القوافي . وفي الاخير ، ينتابه اليأس فيجد نفسه امام الاعيب لفظية والفاظ صوتية تحاول ان تنفخ روحا في فكرة تكاد تكون ميتة من شدة الهزال .

ذلك ، على ما يخيل الى ، بعض السمات الجوهرية لادبنا الكلاسيكي . ولئن كان الانطباع الاخير الذي ذكرت في هذا التحليل من شانه ان يدفع بنا الى اهمال ذلك التراث والاستهانة به ،فان ذلك ، ان حدث ، سيكون من جهتنا موقفا غير عاقل ولا عادل . ذلك اننا ، اذا غضضنا الطرف عن قيمته الفنية التي قد تختلف حسب الكتاب ، واذا وضعناه في اطاره التاريخي الصحيح ، سنكتشف اننا بازاء ادب ملتزم ، بوجه من الوجوه . وهل يحق لنا ان ننسى ان اعظم مشكلة طرحت على المغرب منذ القرن السادس عشر هي ان يصون استقلاله وان يردع اطماع الدول الاستعمارية . واعمال الادب المغربي الذي كتب في تلك الفترة ساهم بفعالية في ادراك هذا الهدف لانه عمل على اذكاء الروح الوطنية وايقاف الهمم وتحريك الشجاعة والفضائل التقليدية .

لكن ، بما ان كلمات وطن دين وثقافة ، وان اختلفت الفاظها، تعني ، على وجه التقريب ، شيئا واحدا بالنسبة اليه ، فان التزامه بدل أن ينعكس على صعيد عملي وواقعي ويكون محركا لعجلة التطور ، تجاوز نفسه وتقمص في موقف فكري جامد ودوجماتي . وبعبارة اخرى فان هذا الادب لكي يحتفظ بمعناه بالنسبة الينا ، فلا بد من ان ننظر اليه من خلال علاقاته بتاريخ بلادنا .

نهاية العزلة

على ان ثقل هذا التاريخ العريق هو الذي يفسر لنا كيف ان استرجاع الوعي عندنا حصل بشيء من البطء والصعوبة . فكان لا بد من انتظار بداية القرن العشرين لنشاهد العلامات الاولى الدالة على الاستيقاظ الفكري . ذلك ان التهديد الاستعماري تحول الى هجوم واعتداء صارخ . وتبين لمن كانوا يحملون نواة الفكر والثقافة ان موقف الجمود والدوجماتية لم يكن يغني شيئا في مواجهة الاحداث . لقد تخلوا منذ قرون عديدة عن دورهم في ايقاظ الافكار وتنوير العقول والبحث عن الحقيقة ، واختاروا موقف الانطواء وابقاء ما كان على ما كان . فلم يستطيعوا أن ينصحوا لامة ولا لدولة في الوقت المناسب لرد الاستعمار على اعقابه ، ولم يقوموا بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بالاسلوب المواكب للتطورات التاريخية. بل اصروا على سلوكهم المعتاد ، بخلقه واخطائه ، وان اي شيء لم يفتح الى ان طرق عليهم العدو الابواب .

والى جانب الاحتكاك بهذا الواقع المر ، بدأ الاتصال الفكري مع اسرى يفتح بعض العقول على آفاق اخرى من التفكير والوان جديدة من الكتابة ، وان كان الجمهور الذي تطرقه ضيقا ومحدودا .وغدا ادباؤنا المحتكون عن قرب يكتشفون عند مسلمين آخرين نهجه جديدة لا تكاد تنحرف عن مبادىء الفكر السني ، ولكنها تعترف بحقوق العقل والمنطق والمنهاج العلمي ونوع من حرية التفكير .

ثم يعد من الممكن البتاء في خارج الانعزال الظليلة ، لان معرفة الحياة او الموت بدأت ، ولان الابواب والنوافذ انفتحت لهواء جديد، ولان الظرف لم يعد يسمح لاحد بالتخلي عن مسؤولية تهم المصير الجماعي . وبالتالي ، لم يعد يسمح لاحد بالاختفاء وراء قناع جميل من التمويه بالكلام والدعاوي المزيفة . بل جاء التاريخ بموضوعيته القاسية ليكشف كل العورات ويظهر كل انسان على حقيقته .. نعم، كان هنالك بعض الرجال الحصفاء والشجعان ، ولكن من كان يسمع صوتهم وسط الكثرة الكاثرة ممن الفوا ترديد اللازمة القديمة « ليس في الامكان ابدع مما كان » او ممن يشخنون خناجرهم المسمومة باستمرار مترصدين لكل من يدعو الى الاصلاح او التجديد ؟.

ومع سقوط الافنعة ، ظهر انهزام الفكر التقليدي ، فكر التجميد والدوجماتية . وكان من الطبيعي أن يحدث هذا التحول فوضى في الافكار وان يبرز تناقضات ما زالت بدون تسوية حتى الساعة . وكما يقع في احوال مماثلة ، فان القديم يحاول أن يدافع عن نفسه ، ويريد الاستمرار في البقاء ، ولو كانت الشيخوخة دبت الى كل مفاصله . بل انه ، وهو يقاد في نعشه الى القبر ، يكابر في الواقع ، ويدعي انه ما زال على قيد الحياة . ولكن ، هيهات ان تعود اليه النفوس التي كرعت من معين الجديد واطلت على آفاق اخرى تشرق عليها شمس القرن العشرين بنورها الوهاج ودفئها المنعش .

فالادب المغربي عاش وما زال يعيش طيلة ما مر من القرن العشرين في تحول . انه نتاج ثلاثة أجيال من المثقفين : جيل نشأ مع بداية القرن العشرين وكبر مع عهد الحماية ، وجيل ظهر مع حلول الثلاثينات ونشوء الحركة الوطنية المغربية ، وجيل نبغ مع الستينات غداة الاستقلال .

والارتكاز على الاجيال في تصنيف الكتاب والمثقفين لا يعني بالضرورة الاشارة الى مراحل من التطور ، اذ اننا نجد كتابا من الجيل الثالث تم يقدموا أي جديد . ولكننا نستطيع بوجه عام ، ان نلمس لدى كل جيل الميزة الاساسية التي تشخصه .

١ ـ التقاليد والاصلاح

ان انهزام المغرب امام الغزو العسكري الفرنسي والاسباني وترسيخ السيطرة الاستعمارية في البلاد حدثان مافتئا يطرحان مشاكل اخلاقية وسياسة على علماء وشيوخ الوقت . فقد كان هؤلاء يقدمون انفسهم دوما كمدافعين عن الاسلام ووطنيين غيورين على استقلال بلادهم . ويعلمون في دروسهم مبادىء الشرع الاسلامي الذي يدعو الى جهاد الكافر ورفض كل نوع من الخضوع لسيطرته .

فها هم الان يجابهون وضعية جديدة في بلادهم ويتخذون مواقف تثير الاستغراب بتناقضها . فمن ناحية ، كان المفروض فيهم انهم يمثلون تقاليد الجهاد وسنة الاسلام والاباء الوطني . الا انهم

كانوا ، من ناحية اخرى ، اول من انضم الى نظام الحماية وقبله، اما بصمته وتخليه عن كل عمل ورد فعل ، واما بمساهمته الفعلية في قيام العهد الاستعماري . وهكذا اصبحوا يكونون شيئا فشيئا الاطار الجديد للمخزن الواقع تحت الحماية ، مساهمين بصورة او بأخرى في الادارة الاستعمارية وفي نجاح سياستها . اما رؤساء الزوايا التي كانت في سالف الايام تحمل لواء الجهاد ، فقد اصبحوا اليوم، على استعداد لان يكونوا مساعدين للجيش الفرنسي حتى يعجلوا باتمام خضوع البلاد وتهدئتها .

وفي نفس الوقت ، كان عدد من المغاربة البسطاء الذين لا ثقافة لهم يقدمون امثلة رائعة في التضحية والوطنية وهم يواصلون نضالا مستميتا في جبال الريف والاطلس المتوسط والاطلس الكبير والاطلس الصغير . فكانت الجيوش الفرنسية والاسبانية تصطدم بمقاومة عنيفة وتضطر ، احيانا ، الى التقهقر تاركة وراءها خسائر فادحة .

وهكذا تبين ان العلماء والشيوخ تخلوا موضوعيا عن واجبهم. ومع ذلك فلا حق لنا هنا أن نستعمل كلمة الخيانة ، لان الامر يعني موقفا ناشئا عن وضعية طبقة . فهؤلاء المثقفون ينتمون ، في معظمهم، لبورجوازية المدن . وقد تعودوا أن ينظروا بحذر الى البادية وسكانها وكانوا دائما مسايرين للنظام القائم مرتبطين بالحكم المركزي الذي كان يتخذ منهم أطرا لتسيير دواليبه . فكان لا بد من أن يتخذوا نفس الموقف الذي اتخذه المخزن ويفضلوا شكلا من أشكال الخضوع .

الا انهم كانوا في حاجة الى تبرير هذا الموقف من الناحية الفكرية أمام جمهور المغاربة . ولم يكن يغيب عنهم ان المؤاخذة الكبرى التي يمكن ان توجه لهم هي أنهم يمثلون عهدا منقرضا وفكرا جامدا . وهذا ما جعلهم يبادرون بالحاح وبقوة الى الدفاع عن التقاليد في سائر مظاهرها . فكانوا يرددون ان المصائب التي حلت بالمغرب لا يحق ارجاعها الى التقاليد ولا الى التعليم الذي يمارسونه، ولكن الى سلوك المغاربة أنفسهم ، اذ حادوا ، كمسلمين ، عن الصراط المستقيم وابتعدوا عن روح الدين وتخلوا عن واجبات المؤمن.

وقول كهذا يستند الى المنطق والعاطفة كان له الصدى الواسع في وقته بين المغاربة الذين كانوا في حاجة الى تفسير يخفف عنهم هول المصائب وفداحة الاحداث . وكان للزوايا المبثوثة في عموم المغرب ولمعاهد دينية مثل « القرويين » وغيرها دور في نشره وتعميمه بين السكان . وكان بعض شيوخ الزوايا الكبرى يقومون بجولات واسعة في البوادي لنشر هذه الافكار في أوساط الشعب بمساعدة سلطات الحماية وتشجيعها . واما في المدن الكبرى ، فكانوا يرفعون من مستوى تعليمهم فيقدمون دروسا جامعية لا تخلو من غوص وتقعر حتى يبهروا الشباب المثقف . وفي مثل هذا النشاط تميز رجل مثل عبد الحي الكتاني شيخ الطريقة الكتانية الذي يمكن اعتباره زعيما لهذه النزعة ، بما توفر عليه من اطلاع واسع في العلوم الاسلامية .

لكن هذا الموقف الفكري ما لبث أن أثار الاعتراض لدى ذوي العقول اليقظة وفي ضمنهم طائفة من الذين ظلوا متشبثين بالتقاليد. فقد بدأ يتراءى للجميع انه موقف ينتامى عن كل مشكلة ويسد الباب أمام كل اهتمام جدي بمصير الوطن وكل بحث في قضاياه ويؤدي ، في النهاية ، الى اقناع المغاربة انهم يجب أن يكونوا راضين عن أحوالهم مرتاحين لمآلهم . وما كان لايديولوجية أن تستجيب لرغبات الاستعمار وتحقق أغراضه مثل هذه .

وهذا ما حدا بعلماء آخرين ان يعيدوا النظر ببصيرة نافذة في تكوينهم الشخصي والاسس التي بني عليها . وكان هذا هو احد المنطلقات لما دعي فيما بعد « حركة الاصلاح » أو « السلفية » . والحقيقة ان الكلمتين يفسر كل منهما الآخر . ذلك أن كلمة اصلاح في هذا الاتجاه لا تعني السير نحو الجديد والمجهول ولكنها تهدف الى الكشف من جديد عن التراث الصحيح ، أي تراث السلف الصالح ، أي تراث الجيل الذي عاش في عهد نشوء الاسلام وعرفه وطبقه في صورته الخالصة . ومعنى هذا أن رجال هذه النزعة يميزون بين ارثين : ارث المحافظين المتعصبين الذين يدافعون عن كل مخلفات الماضي بدون تمييز بينها ودون أي عملية للتطهير والتنقية، والارث الذي يعود بنا عبر القرون الى ينابيع الاسلام الاولى .

الا ان السلفية المغربية حينما قامت بدعوتها لم تكن ، في الحقيقة ، الا صدى للسلفية الشرقية ، اذ كانت تردد نفس الحجج ونفس المقولات التي كان يقدمها شيوخ مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ... والحقيقة انه لم يكن في المستطاع التجديد في مثل هذا الاطار . فالحركة في مبادئها الاساسية لا تعني اكثر من الانسلال من اسلام تشوهت صورته بسبب ما طرأ من انحراف على المجتمعات الاسلامية عبر التاريخ ، الى الاسلام الاصلي أي ، بعبارة اوضح ، الى الاسلام الازلي الذي يوجد في نص القرآن والحديث الصحيح ـ الا أن السلفيين كانوا يهدفون من وراء هذا الانسلال الفكري عبر القرون الى اقامة الدليل على فكرة يعتبرونها أساسية في مدرستهم وهي أن الاسلام الصحيح لا يتنافى في شيء مع العلم العصري . وهكذا ، فان الاسلام ، في نظرهم ، مستعد لان يحتضن ويتبنى كل ما أتت به حضارة العصر من مكاسب حقيقية تستفيد منها الانسانية .

بفضل هذا النفخ ، استطاعت السلفية المغربية ، برغم اتجاهها المحافظ ، أن تساهم في تطوير الافكار وخلق وعي جديد . وهكذا لمعت أسماء شيوخ مغاربة مثل أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي وغيرهما ، بما كانوا يلقونه على الجمهور في كبريات المدن من دروس صادفت اقبالا متزايدا لدى الشباب من العلماء والطلبة . وكان دور هذا الرعيل الاول يكمن ، قبل كل شيء ، في تكوين أساتذة جدد يقتدون بمثالهم ويعملون على نشر دعوة السلفية في عموم البلاد . ولا حاجة الى التذكير هنا بأن الحركة كانت تصطدم بعداء الطرقيين وأصحاب الزوايا لانها ، وهي تعترض عليهم وتهاجمهم داخل ميدانهم الذي هو الدين ، أصبحت تهدد مصالحهم المادية والمعنوية . فالسلفية ، من بعض الوجوه ، كانت حركة تقدمية لانها دفعت في مدها الى زعزعة الوضعيات المكتسبة والجامدة منذ القرون .

حقا ان الزوايا سطع نجمها في العصور الخوالي ، أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حينما اتخذت موقف الوطنية والشهامة أمام الهجمات الاستعمارية الاوروبية ، وحينما قامت بدور المعارضة لاستبداد الحكم وتعسفه ، وحينما عملت على تنشيط الميدان الثقافي واصبحت هي نفسها مراكز العلم والدراسة . ولكن هذه الروح ما لبثت أن أخذت في التراجع . وهكذا كانت معظم الزوايا في القرن التاسع عشر قد فقدت كل روح للمبادرة وعادت الى موقف الانقياد والمسايرة ، دون الاحتراز بقيود أو شروط . لقد أصبحت في حالتها تلك ، أشبه ما تكون بعون للحكم ، واضحت على استعداد لان تقوم بنفس الدور ازاء بعض الدول الاستعمارية التي كانت تسعى للاستيلاء على المغرب .

ومن جهة اخرى ، اذا نظرنا الى تلك الزوايا من الناحية الاجتماعية ، نجدها تحولت الى اقطاعيات بما أصبحت تتوفر عليه من عقارات واسعة ومناطق للنفوذ وخدام وأنصار . ولذلك اصبح همها الاكبر أن تحافظ على ذلك التراث ، أن لم تعمل على الزيادة فيه . فكان طبيعيا أن تتحول عقليتها منذ أجيال فتصبح مراكز للمحافظة والتزمت وتتخذ مواقف معادية لكل تغيير ، ولو كان سطحيا .

لقد كان فضل السلفية هو انها استطاعت أن تعطي وجها

آخر للاسلام لانها ادنته اكثر ما يمكن من العقلانية العصرية وأقامت الدليل ، في الوقت نفسه ، على ان فهم الظرفية ليس هو التاويل الاصح والاوفى للدعوة القرآنية . وبذلك فسح المجال شيئا فشيئا لفكر اكثر تحررا . وقد قام الجيل الجديد من العلماء ، المتخرجين من معاهد كالقرويين واليوسفية ، مثل علال الفاسي والمختار السوسي ومحمد غازي وآخرين بطرح مواضيع السلفية ونشر أفكارها مستعملين اسلوبا أكثر قربا من العصر ، وتعابير مستقاة من قاموس هذا القرن. ولكنهم كانوا يحترزون من كل تجرؤ فكري ويحرصون على وضع تفكيرهم في اطار اسلامي محض . وسواء واجهوا مشكلة اقتصادية او سياسية أو اجتماعية ، فالاسلام يظل هو مرجعهم الاخير، ينطلقون منه وينتهون اليه .

٢ ـ الوطنية والعصرانية :

مهدت افكار السلفيه للاتصال الذي سيحدث فيما بعد بين المثقفين من الشباب المغاربة والفكر الاوروبي المعاصر . وأعطى علماء الدين المثال لغيرهم فوجهوا أولادهم للمدارس العصرية التي انشأتها الحماية الفرنسية . وسرعان ما أقبلت بورجوازية المدن بهذا المثال. وهكذا أخذ يتهيأ جيل جديد من المثقفين ، وهو الذي سيثير الكلام حوله ابتداء من الثلاثينات مع بزوغ التحركة الوطنية بالمدن .

فقد عاش المغاربة قبيل ذلك مع الثورة الريفية بقياده محمد بن عبد الكريم الخطابي تجربه فريده من نوعها ومليئة بالعبر ، اذ أتيح لهم أن يشاهدوا في عقر دارهم ميلاد حركة للمقاومه الوطنيه، لم تنطلق من المدن بل من الجبال واستطاعت ، مع ذلك ، ان تنتزع التقدير والاعجاب بتنظيمها ومبادراتها وانتصاراتها .

ان حركة محمد بن عبد الكريم الجريئة التي اقتحمت الساحة المغربية وغمرت كل آفاق التطلع لدى المغاربة ، جعلت النقاش اللامتناهي بين السلفية ورجال الزوايا من الاشياء المتجاوزة التي أكل الدهر عليها وشرب ، وأدخلت عناصر جديدة في الحوار الوطني الذي كان يجري داخل المجتمع المغربي . فقد بدا يظهر للعيان اننا اذا اردنا أن نتخلص من ربقة الاستعمار ، فلا بد من أن نضع أنفسنا في مستوى الدول المصنعة بأوروبا ، وأن نكون مزودين بنفس الاسلحه الفكرية والمادية . ذلك ما برهنت عليه النتيجة السلبية التي آلت اليها ، في النهاية ، محاولة محمد بن عبد الكريم ، برغم جرأتها . فلا بد ، اذن ، من الاتصال مع ثقافة الغرب ، بدون برود ولا عقدة نفسية ، مع الوعي الدائم بفكرة موجهه ، الا وهي التهيؤ لمعركه طويلة من أجل التحرر الوطني .

هذا الاتصال الذي توسع بالتدريج جعل « النخبة » المغربيه المثقفة تستانس بتفكير نشكلي ، عقلاني ، يبحث عن أساسه في ذاته وفي الواقع المدرك ، بعيدا عن كل سلطة مقدسة أو منزهة . هل في مستطاعنا أن نتحدث عن ثورة فكرية ؟

لنكن صرحاء ، فالثورة بمعناها الجذري كانت مستحيلة ، لان الظرف التاريخي لم يكن في جانبها . فالمعركة كانت قائمة ضد الاستعمار . فكان لزاما ان تجند الجماهير ، وأن تثار في نفوسها روح التضحية . ولم يكن آنذاك الا شعار واحد هو الذي يستطيع أن يجمع حوله الشعب المغربي برمته ، الا وهو الاسلام ، وكل لغة اخرى ما كانت لتفهم . و « الظهير البربري » كان أبرز حدث في هذه المرحلة .

بيد ان تجنيد الجماهير تحت شعار الاسلام لم يكن يعني بالنسبة للجيل الجديد من المثقفين أي تخل عن المكاسب العصرية للثقافة العالمية . وهكذا جرى الاتصال بها عن طريقين : مباشرة ، بواسطة المدرسة الفرنسية التي ، برغم قلة عدد تلاميذها ، استطاعت أن تشع في بعض المدن ، وتنجب نواة من المثقفين سيصبح البعض منهم من قادة الحركة الوطنيه ، وغير مباشرة بواسطة الادب العربي الجديد الوافد من الشرق ، والذي تأثر ، كما هو معلوم ، بالثقافات الاوروبية ، وخاصة بالثقافتين الفرنسية والانجلو ـ سكسونية . الى جانب تأثير المدرسة الفرنسية يجب أن نتحدث ، ايضا ، عن تأثير الكتاب والصحافة والسينما ، وبالاخص عن المثال الحي الذي قدمه بعض الاساتذة والكتّاب والسياسيين من فرنسا . كما ان بعض الكتّاب من الشرق العربي مثل طه حسين والعقاد وميخائيل نعيمه وتوفيق الحكيم كان لهم تأثير مماثل على المثقفين الذين لا يحسنون الا العربية .

من كل هذه التطورات تبعث حركة التجديد والعصرانية التي ظهرت قبل استقلال المغرب . وكان أولئك الذين ينتمون اليها يجدون انفسهم في وضعية تناقض ظاهري ولكن ذات انعكاسات على المستوى السياسي . فقد كان نفس المثقفين الذين يحاربون فرنسا كدولة استعمارية هم الذين يدافعون عن الافكار التي تعلمها المدرسة الفرنسية ، وهم الذين يشيدون بالثقافة الفرنسية امام مواطنيهم . ففي هذا الوقت بالذات بدا المجتمع الثقافي المغربي يتعرف على أفكار الثورة الفرنسية . وغدا المثقفون يكتشفون روسو ومونتيسكيو وفولتير والرومانسيين ، في النصوص الاصلية أو المعربة . ومن الممكن أن نلتمس تأثيرهم في بعض المؤلفين المنتمين لهذا الجيل مثل عبد المجيد بن جلون ، وعبد الكريم بن ثابت . ولكن الظروف جعلت أدب هذه الفترة ينصرف ، قبل كل شيء ، الى المواضيع والاهتمامات السياسية . أما الاعمال ذات الصبغة الادبية البحتة فلم تنشر الا بعد ذلك بزمان .

٣ ـ البحث عن الهوية والايديولوجية :

كان لا بد من انتظار الاستقلال لتظهر المواقف الفكرية المختلفة بوضوح . لقد استمرت التيارات التي تمثلها المدارس التقليدية ، بطبيعة الحال . فما زال لدينا ممثلون عن الزوايا ، وعن السلفية . بل يمكن القول انهم يحظون بعطف السلطات . ولكن تأثيرهم يكاد يكون منعدما على الشباب . والقطاع الوحيد الذي ما زال يسمع فيه صوتهم هو الذي يشمل الاوساط المحرومة في معظمها من أي اتصال مع التعليم العصري ، أي سكان الارياف وسكان المدن الذين ما زالت تغلب عليهم الامية .

وانعدام تأثيرهم على الشباب لا يرجع للدين في حد ذاته ، بقدر ما يرجع لطريقتهم الدوجماتية في التفكير ، وقلة تفتحهم وتسامحهم في المناقشة وتبادل الافكار ، واسلوبهم المبني على الابوية في التعامل مع الجيل الصاعد الذي يحكمون عليه مسبقا بالانحراف والافلاس . والا فان الشباب برهن ، كلما أتيحت له الفرصة ، على استعداده لتفهم الاسلام وتعاليمه وقيمه اذا وجد استاذ او مفكر قادر على أن يتحاور معه بلغة العصر وبمقاييس العصر .

ومهما يكن فالاهتمام الاول الذي يغلب على الجيل الصاعد هو المستقبل . وهذا امر طبيعي . فشباب اليوم أصبح متشبعا بمبادىء ومطالب كان آباؤه يجهلونها أو لا يحفلون بها ، مثل الديموقراطية وتكافؤ الفرص أمام الأفراد . والاشتراكية والعمل الجماهيري الخ .. وهذا ما يجعل الادب الجديد يتجه الى المستقبل وينطبع بطابع العصرانية . ولكن ما هي العصرانية ؟ كلمة تثير اختلافات في التصور والتحديد . مما يفتح الباب لتيارات مختلفة. وهنا يكون للايديولوجيات جاذبيتها التي تأتي في المقام الاول . فالادب المغربي الصاعد متطلع الى الجديد ، الى الارتباط بروح العصر في حقيقته العميقة والجوهرية . فهو بأبوابه وأفكاره واتجاهه العام يفترض جملة من الاختيارات السياسية : انه مناهض للاقطاعية ، متطلع الى الديموقراطية ، مهتم بالاشتراكية .

ولكن هذه الاختيارات تظل لحد الساعة اطارا فكريا واسعا قادرا على تقبل التنوع والاختلاف في المواقف الفردية للكتّاب . فاذا ما ألغينا كل ما تنطوي عليه تلك المواقف من عناصر تجريدية أو من رواسب المطالعات يمكننا أن نميز بين تصورين للعصرانية :

١ ـ تصور يرى العصرانية كبضاعة اجنبية ، صلبة متماسكة يجب أخذها بكاملها ومنحها جنسية مغربية .

٢ ـ تصور يرى العصرانية كتدفق من الداخل ، كبحث تلقائي عن وعي ونفد ذاتي . وهذا يقتضي أن يدخل في الاعتبار مجتمعنا كواقع تاريخي وكل حي وملموس .

فالنقاش قائم بين هؤلاء وأولئك ، بقدر ما تسمح به وسائل التعبير المتوفرة ، وفسح المجال لحرية الرأي . فالى جانب الرقابة الميكانيكية التي يمكن ان تمارسها السلطات ، هنالك الضغط المعنوي والقمع الفكري الذي يمكن للاوساط الرجعية أن تمارسه باسم الدين والقيم التقليدية لتضطهد الادب الجديد وتحارب الفكر التقدمي . فالنهضة الادبية والفكرية في عين تلك الاوساط تكمن في الرجوع الى الماضي لا أقل ولا أكثر .

فاذا نظرنا الآن الى الاعمال الادبية في حد ذاتها ، نجد هذه التيارات الثلاثة تلتقي في الساحة المغربية دون أي اتصال حقيقي أو أي تبادل . ويحق لنا أن نتحدث عن تعايش مبني على التجاهل المتبادل :

١ ـ تيار الادب التقليدي الذي يضم كتابا وشعراء مثل : أحمد بن المأمون البلغيثي ، ومحمد الحجوي ، وأبي بكر بوشنوف ، واحمد الزعيمي ، ومحمد الحجوي ، وعبد الرحمن بن زيدان ، ومحمد بن علي الدكالي ، ومحمد المكي البطاوري ، وعبد الحفيظ الفاسي ، والتهامي الوزاني ، والعباس بن ابراهيم التعاريخي ، ومحمد العبدي الكانوني ، وعبد الاحد الكتاني ، ومحمد المهدي الحجوي ، والعباس القباج ، وأحمد بلخياط الخ ... ولا أحتاج أن أنبه الى ان بعض الاسماء الواردة في هذه القائمة هي لاشخاص قبلوا ان يتعاونوا مع الاستعمار ويسيروا في ركابه . وهنالك اسماء اخرى هي لاشخاص ظلوا يمثلون الفضائل التقليدية ، باخلاص ، وحافظوا على مبادئهم في الظاهر والباطن .

٢ ـ تيار السلفية والتفتح : يضم اشخاصا من آفاق متعددة . فهنالك علماء الدين مثل : محمد بن العربي العلوي ، وأبي شعيب الدكالي ، ومحمد السائح ، وأبي بكر زنيبر ، وعبد الله كنون ، وعلال الفاسي . وهنالك أدباء مثل : محمد داود ، وأحمد الفواز ، وأحمد الصبيحي ، وعبد الرحمن حجي ، ومحمد اليمني الناصري ، ومحمد القري ، وعبد الكريم سكيرج ، وسعيد حجي ، وعبد الملك البلغيثي ، ومحمد الحلوي ، ومحمد بن تاويت ، ومحمد المنوني ، وأحمد بناني ، ومحمد اقبال الشرقاوي ، وأبي بكر اللمتوني ، وعبد الكريم التواتي ، وعبد الوهاب بن منصور ، وعبد العزيز بنعبد الله .

٣ ـ تيار التجديد والتحول : وهو الذي يضم كل الاتجاهات الجديدة. ومن بين كتّابه من يميلون أكثر الى استعمال اللغة الاجنبية. فمن الشعراء نذكر : عبد الكريم بن ثابت ، وادريس الجاي ، وأحمد المجاطي ، وعبد الكريم الطبال ، وأحمد المديني ، وعبد اللطيف اللعبي. ومن بين القصصيين نذكر عبد المجيد بنجلون ، وعبد الكريم غلاب ، ومحمد ابراهيم بوعلو ، ومحمد زفزاف ، ومحمد الصباغ ، وربيع مبارك ، وادريس الخوري . ومن بين النقاد والباحثين نذكر محمد بنشريفة ، ومحمد برادة ، وعباس الجراري ، ومحمد الكتاني ، وحسن المنيعي . ومن بين رجال الفكر : محمد الحبابي ، وعبد الله العروي ، وعبد الكبير الخطيبي ، ومحمد عابد الجابري الخ ... ونحن نعترف مسبقا ان هذه القائمة مبتورة نسيت فيها أسماء ربما كانت تستحق أن تذكر قبل غيرها . ولكن لم يكن قصدنا هو الاحاطة والشمول ، وانما تقديم امثلة بذكر بعض الاسماء . على ان النقد العلمي الصحيح هو الذي سيتكفل ، في النهاية ، بعملية الغربلة والتصنيف ، فتطفو أسماء وتخبو أخرى ، كما حدث في آداب الامم الاخرى . والذي يجب أن نذكره مرة أخرى ، هو ان أنصار هذا التيار يستهدفون باستمرار المهاجمة الرجعية ومضايقتها بكل الوسائل الممكنة .

الا ان الرجعية الفكرية ، برغم ما تتلقاه من مساعدات وتشجيعات ، وبرغم ما تتوفر عليه من وسائل ضخمة لنشر جرائدها ومجلاتها وكتبها وتوزيعها ، تشعر بأنها منخلفة عن التركب وأنها تزاول معركة جحود ومكابرة ، معركة تنذر بقرب افول نجمها . فتدخلها المتطفل والمعاكس للتاريخ يقلل من اقبال الجمهور المتنور عليها ، وهذا ما يترك أمام الادب الفتي حظوظا من النجاح والاشعاع ، اذا وعى دوره وعرف كيف يؤديه على الوجه الاكمل . فلا ينبغي للشباب أن يغتر بشبابه ويظن ان كل الابواب مفتوحة أمامه ، بدون قيد ولا شرط، وهذا يعني أن هنالك مشاكل لا بد من الانتباه اليها وهي التي سنتعرض لها الآن .

١ ـ عند تحليل الانتاج المنشور حتى الآن ، بالنسبة لكل الاجيال التي ذكرنا ، نخرج بانطباع عام هو غلبة التقليد على الابتكار الحقيقي . فادباؤنا المحافظون حينما استعملوا السجع كتبوا على منوال ابن الخطيب دون أن يدركوا شأوه . وكتّاب السلفية ترسموا خطوات محمد عبده ورشيد رضا والامير شكيب ارسلان والكواكبي من رجال الاصلاح والوطنية في الشرق دون أن يرتفعوا الى مستواهم ويشقوا طرقا اخرى اكتشفوها باجتهادهم . وهنالك طائفة أخرى آثرت الاقتداء بطه حسين والعقاد وميخائيل نعيمة فظلوا يسعون وراءهم دون أن يدركوهم . وفي الستينات ظهرت طائفة قرّ في ذهنها انها ادخلت ثورة جذرية في ثقافتنا ، حينما نادت بمنهاج بسيط يتلخص في النسج على منوال سارتر وكامو وغيرهما من الكتاب الذين تتردد أسماؤهم على كل الالسنة في اوروبا ، دون ان يراعوا الفوارق بين البيئات والمستويات الحضارية والمعطيات الجماهيرية ، والخصوصيات المحلية ، والحاجيات الملحة بالنسبة لمجتمع يغالب التخلف .

والتقليد مقبول اذا أخذ بمقدار وبقي في حدود معقولة ، ولكنه يصبح آفة اذا طغى على الانتاج وجعل منه مجموعة من الاصداء . ولعله كان من الضروري أن نمر من هذه المرحلة ، قبل أن نعود الى واقعنا لنكتشفه بقصد تغييره . ويقيني ان المرحلة الآتية ستجعل الكاتب المغربي أشد ثقة بنفسه واكثر ارتباطا بواقع مجتمعه وتجاوبا مع جمهوره .

٢ ـ لا بد من الاشارة الى الدور السلبي الذي يلعبه النقد عندنا ، في الغالب . فالنقد بدل أن يساعد على توسيع الانتاج وشحذ همم الكتّاب يميل الى التحطيم ونكران كل المحاسن . فهو اما ينبني على حملات ايديولوجية لا تبقي ولا تذر ، وتصنف الكتّاب الى كفار ومؤمنين ، على الطريقة المانوية ، مع محاكمة النوايا ، واما يرتكز على الجزئيات ، واقتطاف الجمل من سياقها لضرب الكل ضرب التشويه والتحطيم . هذا ، مع العلم اننا جادون ، أثناء هذه المرحلة ، في انشاء أدب جديد يسير نحو الثورة الثقافية التي نسعى اليها . فلا أقل من أن يكون النقد واعيا دوره في المساعدة على البناء ، في الترحيب بكل الاقلام الناشئة ، في الاقلاع عن التنفير وتثبيط العزائم. وأعظم خدمة يستطيع النقد أن يؤديها في الظروف الراهنة هي أن يتوصل الى تحديد بعض المبادىء الجمالية العامة التي تساعد الكتّاب على تشكيل ابداعهم مع الاحتفاظ بحريتهم في الرؤيا وحصر المضمون . ومن جملة ما قد يساعد عليه النقد العمل على اكتشاف الواقع الاجتماعي المغربي ، الشيء الذي يطرح بحدة ، مثلا ، على القصصي

والروائي . ما هي النماذج البشرية التي تطفى على مجتمعنا ؟ ما هو مجال تأثيرها ؟ ما هي الثوابت والمتغيرات التي تحيط بها ؟ هل توجد لدينا نفس النماذج التي وجدها « بلزاك » او « بروست » في مجتمعه ؟ هل تطرح عندنا نفس المشاكل التي طرحها « توماس مان » مثلا في « الجبل المسحور » ؟ هذه مواضيع طريفة ومفيدة يستطيع النقد أن يفيدنا فيها فوائد قد تصبح مكاسب دائمة ، بدل أن يسلط سياطه العشوائية على ظهور المجتهدين والعاملين في حقل الانتاج .

٣ ـ وهنالك أيضا مشكلة الازدواجية اللغويه التي تضر اضرارا حقيقيا بنمو الادب المغربي المكتوب باللغة العربية . ولا يعني الامر مطلقا أي استنكار لاولئك الذين يكتبون بالفرنسية . بل انها ظاهرة تتجاوز الافراد وتجعل القراء المغاربه المزدوجين لغويا يعانون توترا ، بل اضطرابا فكريا . والسبب في ذلك يرجع الى الفرق الاساسي بين ما هو مكتوب بالفرنسية وما هو مكتوب بالعربية من لدن كتّاب مقربة . فالذين يستعملون الفرنسية يخامرهم الشعور تلقائيا انهم يكتبون لجمهور أوسع ، يدخل فيه الفرنسيون بأكبر نسبة . انهم في الحقيقة يخاطبون ، في آن واحد ، جمهورين مختلفين عن بعضهما اذا وضعناهما في اطارهما المجتمعي ، مما يتسبب عنه اضطراب وأخشى أن أقول بعض الخول في الرؤية ، ان لم تكن هنالك محاولات مصطنعة لملء الفراغ القائم بين مجتمعين متباينين . وهذا يخرج بنا عن قانون الصدق والالتزام بالواقعية ، بعد القرون الجديدة التي عشناها في الخيال واللامعقول !

وبدون أن أنكر براعة الذين يكتبون بالفرنسية وتفوقهم في بعض الاحيان على غيرهم ، لا أتردد في القول أن المستقبل هو مع اللغة العربية ، لان ذلك يستجيب ، أولا ، لتلوضعية الطبيعية والمعقولة التي يجب أن يكون عليها مجتمعنا ، ولان ذلك يحلّ مشكلتنا الثقافية القوميه ، ولان الحوار الحقيقي مع الجمهور لا يمكن أن يكون الا عن طريق اللغة القومية . فالذين يكتبون بالفرنسية انما يكتبون لنخبة من المغاربة نهم ميل خاص الى تلك اللغة . معنى هذا انا تصالهم مع الجمهور يظل محدودا وغير مباشر .

وهذا ما يجعل الحملة على الازدواجية تسير منذ سنوات عديدة جنبا الى جنب مع الدعوة الى التعريب . والمشكلة تظهر بسيطة حينما ننظر اليها بالنظرة العاطفية ، ولكنها معقدة حينما نتناولها من الجوانب العملية مراعين جانب الفائدة والفعالية . ذلك ان التعريب لا ينحصر في مشكلة لغوية بحتة بل انها ، قبل كل شيء ، مشكلة ثقافية . فالتساؤل الاول المطروح على الاجيال الصاعدة هو : هل سيسير التعريب جنبا الى جنب مع الانفتاح الفكري ؟ هل سيتيح لها التقدم في المعرفة من أيسر السبل وأحسنها ؟

تساؤل لا يمكن ، في الساعة الراهنة ، الجواب عليه بالايجاب ، اذ ما زالت جامعتنا في العالم العربي بأسره متخلفة عن الجامعات الموجودة في العالم المتقدم ، وما زالت مكتبتنا فقيرة حتى في الموضوعات التي تتعلق بنا من قريب . معنى هذا اننا ما زلنا في مسيس الحاجة للاستناد الى المراجع الاجنبية في كل الميادين الثقافية والعلمية . فهل من مصلحتنا أن نطبق التعريب بطريقة مشددة ترمي الى الانغلاق والانعزال ؟ هذا ما لا يتفق مع أي تصور لنهضة فكرية جديدة في العالم العربي . فالتعريب يجب أن يطبق بالعكس ، على أساس التفتح على اللغات والثقافات الاخرى ، مخافة أن يعود بنا الى الفقر والشلل والجمود الفكري .

٤ ـ هنالك مشاكل عديدة تنشأ عن الخلط في المفاهيم لانها غير محددة في الاذهان بكامل الوضوح وغير محللة عند الكثير بالصورة التي تساعد على الالمام باشكاليتها .

وأكتفي بايراد بعض المفاهيم الجوهرية على سبيل المثال :

العالمية : البعض يفهم على انها تخل عن كل ما هو محلي أو ذاتي أو خاص ، أي عن كل ما يميزنا كمجتمع له قصته وموقعه في الزمان والمكان ، ونسلق سريع نحو تصورات تجريدية مستفاد من التجربه الخاصة بالامم المتقدمة والمسيطرة حاليا على العالم . ومثل هذا الفهم لا يضع في حسابه ما نستطيع أن نسميه « الامبريالية الفكرية » التي تمارسها الدول القوية في عصرنا . ثم كيف يمكننا أن ننشىء أدبا قوميا بحق وحقيق اذا انصرف كتّابنا ، بوحي من هذه الفكرة ، عن الجماعة التي ينتمون اليها ، وحصروا كل طموحهم في ارضاء اثر الكتّاب الذين يعيشون بعيدا عنا ؟

والحقيقة ان هذه « العالمية » المزعومة التي يتشبثون بها ما هي الا الفراغ وصورة من صور المثالية ، لان العالم في واقعه الصحيح يتكون من المفرد والملموس أي من العناصر التي لا تتكرر . ولذلك ، فالعالمية الصحيحة هي التي تعكس التنوع داخل الوحدة ، وأعظم الكتّاب في العالم منذ القديم الى اليوم كانوا ، قبل كل شيء ، رسامين ماهرين لمجتمعهم مثل بلزاك وتولستوي وتوماس مان وتوماس هاردي الخ ... فالادب الذي لا يعكس المجتمع ولا يتجاوب مع تطلعاته وحاجاته ومثله وقيمه والذي لا يحمل في مادته الحية طابع الشعب يكون أدبا بدون شخصية وبدون وطن ، أي أدبا ميتا .

الاصالة : من المفاهيم التي أضرّ بها الاستغلال الايديولوجي ، مع انها اذا فهمت على حقيقتها وحللت تحليلا علميا تبين انها تسير في اتجاه تقدمي ، لانها تعني ، في العمق ، الاساس الذي تنبني عليه شخصية الجماعة ، وتكون هي السند المستمر لحريتها ، والوقاية من الوقوع في الاستلاب ، وقد كانت خير سلاح حاربنا به المستعمر . وكل دراسة صحيحة للاداب المعاصرة تبين أن الكتّاب الطلائعيين كانوا ذوي أصالة ، سواء في اللغة التي كتبوا بها أو في استيحاءاتهم أو في أعمالهم الابداعية .

الالتزام : فكرة الالتزام رافقت الادب منذ نشأته ، وتقلبت بين القوة والضعف ، والبروز والاختفاء ، تبعا للظروف التي تجتازها المجتمعات . وقد برزت بأقوى صورة قبيل الحرب العالمية وبعدها ، نظرا للصراعات الايديولوجية بين اليمين واليسار ، بين الفاشيستية والديموقراطية . وغدا لزاما على الكاتب أن يحدد موقفه ويختار موقعه . وضرب عدد من الكتّاب المثل بأنفسهم ، فالتزموا بجملة من القضايا القومية والانسانية العويصة ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الشهير سارتر الذي كتب صفحات طويلة عن الالتزام . ومع ذلك ، فلا ينبغي أن نعتقد ان الفكرة غزت كل الاوساط الثقافية ، بل هي موضوع نقاش واعتراض في الاندية الادبية الاوروبية ، وخاصة في العهود الاخيرة ، لاسباب يطول شرحها .

هذا بالنسبة لاوروبا . أما بالنسبة لنا فالامر يختلف . هنالك تخمة فكرية وادبية . وهنالك تطورات ومكاسب تسمح لكل التيارات ، ملتزمة وغير ملتزمة ، بالظهور والتعايش . اما هنا ، فالشهية جد قوية ، لان الغذاء ما زال قليلا ، يترك الجميع على الطوى . فالكتّاب قلة ، وانتاجهم محدود من جهة الكم ، ولا اتحدث عن الكيف . واذن فالكلمة المكتوبة لها عندنا وزن كبير ، لانها ليست من البضاعة المتداولة بكثرة .

وهنا يظهر بوضوح معنى الالتزام . فما دام الانتاج عندنا قليلا في هذه المرحلة ، فلينصرف بالاولية لخدمة القضايا الكبرى التي يواجهها مجتمعنا في صراعاته من أجل تحقيق الديموقراطية ، والتنمية والعدالة الاجتماعية . فان جاز لنا أن نتصور أن الالتزام هو فرض كفاية بالنسبة للجماعات المتقدمة ، فانه فرض عين بالنسبة للمجتمعات المتخلفة ، حسب الاصطلاح الفقهي . هل يصح لكاتبنا ان

يتخطى المشاكل الحقيقية ليعيش في عالم خيالي حسب ذوقه وهواه ؟ أم يجب عليه أن يتحمل بكل وعي مسؤوليته كرجل حر في المجتمع الذي ينتمي اليه ؟ ذلك هو الاختيار المطروح بحدة على الكاتب المغربي في الوقت الراهن والذي يمكن تلخيصه في سؤال واحد ، هل يعيش ويفعل لنفسه أم لمجتمعه ؟

من هذه النظرة المجملة نستطيع ان نقول ان ادبنا تطور بسرعة كبيرة منذ خمسين سنة لانه انتقل ، في الواقع ، من عقلية العصر الوسيط الى القرن العشرين . ولكن التطور الذي وقع في الاذهان أقوى مما وقع في الاعمال الادبية التي ما زالت لم تجرؤ على التحرر من سيطرة النماذج الجاهزة لتتقمص ثوبها الحقيقي . وهذا امر طبيعي اذا اعتبرنا التحولات التاريخية التي عاشها المغرب في نفس الفترة والتي كان لا بد أن تنشأ عنها في مرحلة اولى أزمة فكرية ايجابية ، لانها تمهد لمرحلة ثانية هي مرحلة النضج والابداع . كما ان الاتجاه الذي يسير فيه أدبنا الحي واضح من الناحية الايديولوجية ، مهما كانت الفوارق الجزئية بين الافراد أو الاسر الفكرية . فالكل شاعر انه لا بد لنا من ثورة ثقافية ، ولا بد لنا من التفتح على الفكر العالمي، بالمفهوم الصحيح . وفي نفس الوقت يجب ان نعمل على بناء ثقافة قومية واصيلة . ذلك هو الالتزام الاول المطروح على كتّاب هذا الجيل.

ـ المراجع ـ

١ ـ الناصري : الاستقصاء .
٢ ـ الحجوي : الفكر السامي .
٣ ـ ابو بكر زنيبر : تاريخ التعليم بالمغرب (مخطوط) .
٤ ـ عبد الله كنون : النبوغ المغربي
٥ ـ م. ابن تاويت و ص. عفيفي : الادب المغربي .
٦ ـ م. حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين .
٧ ـ م. السوسي : سوس العالمة .
٨ ـ عباس الجراري : القصيدة .
٩ ـ علال الفاسي : تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب العربي .
١٠ ـ علال الفاسي : النقد الذاتي .
١١ ـ المجلات :
ـ دعوة الحق (الرباط)
ـ آفـــاق (الرباط)
ـ المنـــاهل (الرباط)
ـ اقـــلام (الرباط)
ـ الآداب (بيروت)
ـ المجـــلة (القاهرة)
ـ الاقـــلام (بغـداد)

12 - M. Lakhadar : La vie littérature au Maroc sous la dynastie alaouite

13 - J. P Sartre : Qu'est ce que la littérature ?

14 - J . Berpue : Problèmes de culture marocaine au XVII siecle .

15 - A . Laroui : L'Idéologie arabe contemporaine

16 - A . Laroui : Les origines Sociales et culturelles du nationalisme marocaine .

17 - Journaux et revues marocains : Libération , Lamlaif, Al Asas etc ...

صدر حديثا

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني
(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق
(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق
(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس
في جزئين :
اقاصيص اولى
اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب